

الشيخ علي حسن غلوم

من هدي النبي الأكرم

الشيخ
علي حسن غلوم

من هدي
عائشة رضي الله عنها
النبي الأكرم



المركز الإسلامي الثقافي

النجف الأشرف

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م



المركز الإسلامي الثقافي

النجف الأشرف

خليوي: ٩٦٤٧٨٠١٥٠٠٤٨٢+

ديباجة

دعماً للجهود المباركة التي بدأها السيد الأستاذ شفيق الموسوي - المركز الإسلامي الثقافى / النجف الأشرف - والهادفة لنشر فكر وثقافة أهل البيت «عليهم السلام» أثناء المسيرة المليونية لأربعينية الإمام الحسين «عليه السلام»، وذلك بإقامة معرض كتاب لمدرسة أهل البيت، تم إصدار سلسلة كتيبات لسماحة الشيخ علي حسن غلوم يعرض فيها أقوال ومواقف رسول الله والأئمة الإثني عشر «عليهم أفضل الصلاة والسلام»، وقد أصدر هذا العام خمسة كتيبات، بدأ فيها برسول الله، وانتهى بالإمام الحسين، وضمّنها بعضاً من خطبة ومقالاته، على أن تكتمل السلسلة المباركة في الأعوام اللاحقة.

إننا إذ نقدّم هذا العمل، فإننا نأمل في أن يكون نموذجاً يُحتذى به لخدمة مدرسة أهل البيت «عليهم السلام»، وأن يكون موضع تنافس ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

المحتويات

- مقدمة ٥ -
- ١. ولادة أمة شاهدة ٧ -
- ٢. هل سيولد من جديد؟ ١٢ -
- ٣. الاتزان النفسي في شخصية النبي ١٦ -
- ٤. الإيثار عند رسول الله ٢٢ -
- ٥. رحمة النبي وآله ٢٨ -
- ٦. النبي في مواجهة التكفير ٣٢ -
- ٧. إنا كفيناك المستهزئين ٣٩ -
- ٨. إلات تنصروه ٤٥ -
- ٩. عبادة الشخصيات ٥٢ -

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين،
والصلاة والسلام على حبيب قلوب العالمين سيدنا ونبينا
محمد وعلى آله الطيبين الميامين.

بين يديك مختارات من خطب ومقالات تم تقديمها من
قبل سماحة الشيخ علي حسن غلوم، إمام مسجد سيد هاشم
بهبهاني في الكويت، وعلى مدى سنوات، ونعيد تقديمها تحت
عنوان: من هدي النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»، وتأتي
ضمن سلسلة تصدر حول هدي النبي وآله «عليهم السلام»،
ومقسّمة على أجزاء تم إعدادها وإخراجها بصورة تتناسب مع
الهدف منها، وهو تقديمها إلى الجماهير المليونية المشاركة في
مسيرة الأربعين الحسينية، ليتسنى لهم مطالعتها والاستفادة
منها خلال رحلتهم سيراً على الأقدام، أملاً في أن نكون من
المساهمين في تحقيق غاية من غايات النهضة الحسينية على
صاحبها آلاف التحية والسلام، وهي إخراج الناس من ظلمات
الجهل إلى نور المعرفة، اهتداءً بكتاب الله، واقتداءً بسنة
رسول الله، واتباعاً لهدي العترة المباركة.

اللجنة المشرفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١)

ولادة أمة شاهدة

لم تكن ولادة النبي الأكرم محمد «صلى الله عليه وآله» ولادة فرد، بل كانت ولادته إيذاناً بولادة أمة جعلها الله سبحانه الشاهدة على سائر الأمم، فهي في محل القطب من الرchy بالنسبة إليها، وإلى هذه الأمة يرجع الجميع، لا من خلال الصفة القومية، ولا من خلال الصفة الجغرافية، ولا من خلال أي عنوان آخر، ولكن من خلال الدور الذي إذا أخلصت له استطاعت أن ترتفع إلى المستوى الأرقى في المواقع الإنسانية، وإذا لم تخلص له فإنها إذا لم تنزل إلى المواقع الدنيا، فعلى الأقل لن تحصل على قيمة الارتقاء: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ «البقرة: ١٤٣».

• إعداد وتهيئة:

كانت الفترة ما بين مولده الميمون ومبعثه الشريف فترة إعداد وتهيئة، ليكون الإنسان الذي يجسد في انطلاقاته العملية وفي علاقاته العامة شخصية الإنسان الذي يمكنه أن

يقوم بمسؤولية الرسالة.. بل الرسالة الخاتمة التي تكتنز كل مقومات البقاء والاستمرار والتناغم مع الحياة البشرية مهما تقدمت في المجالات المختلفة. ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ «الشورى: ٥٢-٥٣».

وقد حملت تلك الفترة تحديات عديدة لمحمد الطفل ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ «الضحى: ٦-٨»، فكانت عين الله ترعاه، وملائكته تحرسه وتحفظه، وهو ما عبّر عنه الإمام علي «عليه السلام» حين قال: (ولقد قرن الله به «صلى الله عليه وآله» من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره).. ثم محمد الشاب اليافع الذي أثبت لقريش أنه الإنسان الذي يمكن أن تثق بكلماته وبأفعاله وب عقله الكبير، ولذا اطمأن المتنازعون على وضع الحجر الأسود في مكانه بعد ترميم الكعبة المشرفة حين دخل عليهم محمد الشاب الذي عرفوه بالصادق الأمين وبصاحب الحكمة، فأشار عليهم بما أنهى به خصومتهم التي كادت أن توقع بينهم القتال.

• فاصدع بما تؤمر:

ولما حمل مسئولية الرسالة وصدع بأمر الله «عز وجل» واستقام كما أراد له ربه أن يستقيم، تحقق على يديه ما لم يكن يخطر على بال أحد.. أن يكون يتيم قریش هو صاحب القوة التي يدعو من خلالها كسرى وقيصر ومن دونهما كي يدخلوا في الإسلام، وينازل بها الفرس والروم دون أن يهاب شيئاً في هذا الطريق.. يأتيه المدد المعنوي والمادي من الغيب، ويعينه في تحقيق إنجازاته أصحاب آمنوا به وبرسالته ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ «الفتح: ٢٨-٢٩».

• قيادة حريصة:

وما كان ذلك الالتفاف حول النبي «صلى الله عليه وآله» ليتحقق لولا الصفات القيادية التي تحلى بها.. ولا أعني هنا

خصوص الكاريزما وقوة الشخصية، بل من خلال ما جاء في قوله «تعالى»: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ «التوبة: ١٢٨»، فهو الرسول القائد الذي يحمل همَّ النَّاسِ ويتألم لآلامهم، إذا تعب النَّاس من حوله فإنه يتعب لتعبهم لما يحمله من همَّ كبير تجاههم، فيفكر في حلِّ مشاكلهم وكيفية التخفيف منها، وما ذلك إلاَّ لأنَّه يعزُّ عليه المشقَّات والمصاعب والمتاعب التي يحملونها في حياتهم، فيحرص على التخطيط لحلِّها، ويسخر لأجل ذلك كلَّ طاقاته ليدفع عنهم كلَّ التحديات التي توجَّه إليهم. يحرص عليهم أن يكونوا الأعزاء أمام مَنْ يريد أن يذلهم، والأحرار أمام مَنْ يريد أن يستعبدهم، والعلماء أمام مَنْ يريد أن يؤصِّل فيهم الجهل، وهكذا، يحرص عليهم ليرفع مستواهم، وليخطِّط لهم السير في خطِّ العدالة.

• القيادات المعاصرة:

إنَّ الله «سبحانه» عندما حدَّثنا عن الحالة النفسية للرسول تجاه أمته، كأنَّه يريد أن يقول لكلِّ القيادات: كان رسول الله يفكر في الأمَّة، يتألم لآلامها، فكونوا ممَّن يتألم لآلام الأمَّة. كان رسول الله لا يعيش لشخصه ولكنَّه كان يعيش لأمَّته، فكونوا الذين تعيشون للأمَّة ولا تعيشون لأشخاصكم. كان رسول الله حريصاً على الأمَّة لا يريد لها أن تضع، فكونوا

الحريصين عليها. وكان الرسول الرؤوف الرحيم بالمؤمنين فكونوا الرؤفاء الرحماء بهم.

ولو كانت القيادات المعاصرة التي اضطرت للانصياع إلى إرادة شعوبها فانحنت لحركة الجماهير المليونية باتجاه نيل حريتها واسترجاع شئ يسير من كرامتها وعزتها وشخصيتها التي استنزفتها سياسات قادتها خلال العقود المنصرمة، لو كانت تلك القيادات عاشت ولو جزء بسيطاً من الوصف القرآني لقيادة النبي، لما آلت أمورها إلى ما هي عليه اليوم.. وهكذا هو الأمر لسائر القيادات التي تسحق شعوبها بقوانين الطوارئ والأحكام العسكرية وغير ذلك من العناوين التي تحولت من حالات ثانوية طارئة تفرضها بعض الظروف العصيبة إلى أوضاع أصيلة تحكم من خلالها بالحديد والنار. والرسالة اليوم في ضمن الأحداث المتسارعة وانتقال شرارة الثورة من بلد إلى آخر وتكرار ذات السيناريو: أن أمام تلك القيادات فرصة التغير الحقيقي ليكونوا القادة الذين يشعرون بحق أنهم من الشعب وإلى الشعب، عزيزٌ عليهم عنت رعيّتهم، حريصون كل الحرص أن يحققوا لهم آمالهم وطموحاتهم في حياة إنسانية شريفة تكفل لهم كرامتهم وحريّتهم وعزّتهم.. وإلا فعليهم أن يفكّروا بكل جدية أن رياح التغيير القاهرة قادمة لا محالة.. إن لم يكن اليوم، فالغد لناظره لقريب.

هل سيولد من جديد ؟

ولد النبي محمد «صلى الله عليه وآله» فكان مولده إشراقة شمس أضاءت للإنسانية في آفاق الحياة، فأخرجتها من ظلمات الباطل إلى نور الحقيقة، ومن رجعية التقليد إلى روعة الإبداع، ومن مضائق التعصب إلى رحابة الموضوعية.

ولعل من أبرز سمات المجتمع الجاهلي هو العصبية بمفرداتها المختلفة، وتقديم الذات على كثير من العناوين الأخرى كالمصلحة العامة والتضحية من أجل المبدأ.

• التعصب:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ «المائدة: ١٠٤».. هكذا كانوا في تعصبهم الذي يدور حول الذات، أو انتمائهم القبلي أو القومي، فأغلق عليهم منافذ الهداية وأجَم عقولهم عن الانطلاق للتفكير بعمق في كلمات رجل منهم، خبروا فيه الصدق فلم يجدوا في قوله كذبة، وعهدوا منه الأمانة فلم يعرفوا منه خيانة.

وأما الموضوعية فكانت سمة الدعوة المحمدية في منهجها الفكري والأخلاقي، الأمر الذي مثّل انقلاباً في شخصية العربي الذي كانت تحكمه نوازعه وانتماءاته.

• الموضوعية في الفكر:

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ «سبأ: ٢٤»، وهذه الآية تمثل القمة في الأسلوب الموضوعي في التفكير ومحاولة الوصول إلى الحقيقة بعيداً عن التعصب للذات حيث يساوي الإنسان الآخر بنفسه، على الرغم من اختلافه معه وقناعاته بالخطأ في موقفه. وإذا تربّى المسلم على هذه الروحية، وفكّر بهذا المنطق، فسيصل إلى النتائج التالية:

١. سيعرف كيف يستمع إلى الآخر.
٢. سيحترم الآخر، فلا يوجّه له رسائل السخرية والاستخفاف التي تمثّل حاجزاً نفسياً أمام التعاطي الفكري مع الموضوع.
٣. سيتفهّم تأثير الخلفيات النفسية والاجتماعية والسياسية على الآخر، فلا يسارع إلى الحكم عليه بالمرقوق والخيانة والتعصب وما شابه ذلك، فلعله يملك عذراً يبرّر به موقفه، كما نبحث لأنفسنا عن الأعذار التي تبرر لنا مواقفنا.
٤. سيبسّر إمكانية التعرّف على نقاط الالتقاء عند الطرفين.

٥. سيوفّر المناخ النفسي الملائم للقناعة بالفكرة التي تدعمها الحجة، ويسندها الدليل بوضوح.

٦. سيهيئ للآخرين المناخ الذي يمكنهم من تفهّم القناعات التي نتبناها.

٧. سيوفّر لنا الجو الهادئ البعيد عن الحماسة المنفعلة التي تغلق منافذ العقل وتبعدنا عن التركيز في الفكرة وفي وسائل الدفاع عنها، وفي عناصر الهجوم على الفكر الآخر.

• الموضوعية في العلاقات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ «النساء: ١٣٥»، فالعدل هو أساس العلاقات القائمة بين الناس، فما ينسجم مع العدل يجب أن ينسجم مع موقف المسلم، ولو كان على حساب عاطفته أو مصلحته أو العناوين التي ينتمي إليها.

ومن هنا استغرب المسلمون الذين عاشوا هذه المفردة المهمة في الأخلاق والسلوك حين قال لهم النبي «صلى الله عليه وآله»: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً). فقيل: (كيف أنصره ظالماً؟) لأن هذا يتنافى مع عنوان العدل، والعدل ينطلق من

النظرة الموضوعية للأمور وللأشخاص في إطار العلاقات الإنسانية التي طالما أكد عليها النبي «صلى الله عليه وآله» في تربيته لأصحابه من خلال القرآن الكريم ومن خلال توصياته الشخصية، فأجابهم بما يتناسب مع ذات الخط والمنهج الذي توطّره حركة العدل في الحياة: (تردّه عن ظلمه، فذاك نصرِك إياه).

وعليه جاء التأكيد المتكرر على ضرورة إنصاف الآخرين ولو من النفس، واعتباره من الدلائل الحقيقية على الإيمان، فعن النبي «صلى الله عليه وآله»: (من واسى الفقير وأنصف الناس من نفسه فذلك المؤمن حقاً) مع بيان صعوبة الأمر لتعارضه مع أهواء النفس والتربية السلبية، فعنه «صلى الله عليه وآله»: (ثلاثة لا تطيقها هذه الأمة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كل حال).

(٣)

الاتزان النفسي في شخصية النبي ﷺ

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾
«آل عمران: ١٥٩».

جاءت هذه الآية الشريفة في أجواء معركة أحد والأوضاع الخاصة التي عاشها المسلمون مع اقتراب جيش كبير للمشركين، على خلاف غزوة بدر الكبرى حيث كان اللقاء على بعد عشرات الكيلومترات من المدينة.

وعلى الرغم من إبداء النبي «صلى الله عليه وآله» الميل للمواجهة من خلال التحصن في المدينة نفسها، إلا أن كثيراً من المسلمين، بما فيهم الشخصيات البارزة من أصحاب النبي «صلى الله عليه وآله»، ولاسيما الذين لم يشاركوا في غزوة بدر، بالإضافة إلى الشباب المتحمسين، أصروا على الخروج للقاء العدو في أرض مكشوفة على مشارف المدينة.

وانطلقت في تلك الأجواء الكلمات الحماسية منهم

والضاغطة باتجاه الخروج، فما كان منه «صلى الله عليه وآله» إلا أن استجاب لرغبتهم الحماسية، وأعلن البدء بالتهيو للخروج.. بالطبع ندم جمع منهم بعد ذلك، وتلاوموا فيما بينهم، واعتذروا للنبي، وأبدوا استعدادهم لتنفيذ خطته، إلا أنه لم يتراجع عن القرار ومضى فيه.

وهكذا استوعب النبي «صلى الله عليه وآله» الموقف . وبكل رحابة صدر. وأمضى رغبتهم، وهو القائد الأعلى، والمسدد من الغيب، واكتفى بقول: (قد دَعَوْتُكُمْ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ فَأَبَيْتُمْ، وَلَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لَأَمَّتُهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ).

لم ينفعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» غاضباً لرفضهم قوله في البداية، ومن غير أن يحقر رأيهم مقابل رأيه، أو يستسخر عقولهم أمام حكمته وارتباطه بالغيب.

وهكذا عبّرت الآية الشريفة عن حكمة النبي، وأخلاقه الرفيعة، وشخصيته المتوازنة، وقلبه الكبير. وهو أيضاً ما عبّر عن بعضه أكثر من شخص ممن عاشروه فقالوا عنه فيما قالوا: (لم يكن فحاشاً ولا متفحشاً ولا صحاباً).. أي لم يكن يتكلم بما هو قبيح من القول، ولا يأتي بما هو قبيح من الأفعال، وكان هادئاً في قوله، ليس بالصيَّاح.

• على خطى جده:

وعلى هديه كان إمامنا جعفر الصادق «عليه السلام»، وقد قال إمام المالكية مالك بن أنس: (ما رأيت عيني أفضل من جعفر بن محمد فضلاً وعلماً وورعاً.... ثم يكن عياباً ولا سباباً ولا صحاباً... ولا طعناً ولا لعناً ولا هماً ولا لماً).

• السيطرة على الانفعال:

لاشك أن الانفعال سلوك إنساني طبيعي.. وعلمياً يقولون أن الفص الأمامي للدماغ مسؤول عن عمليات التفكير المنظم، والتخطيط، واتخاذ القرارات عن وعي وإدراك، بينما في أسفل المخ هناك لوزة أصغر من حبة البندق، تتعامل مع التغيرات المفاجئة والأزمات والانفعالات كالغضب، والحرص، والحزن، والخوف، وغيرها.

فعندما يتعرض الإنسان لمواقف فجائية طارئة تتفاعل هذه اللوزة مع هذا الطارئ، وتُحوّل جزء من طاقة الفص الأمامي إلى حواس الإنسان وأطرافه، فتبدر من الإنسان تصرفات انفعالية، ويغيب حينها دور العقل.

تقول بعض الدراسات أن كل ما تحتاجه في تلك اللحظة أن تعطي لنفسك فرصة ٦ ثوان كي تعيد للفص الأمامي دوره ليأخذ زمام الأمور بدلاً من تلك اللوزة. في الحديث النبوي:

(إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع). هذا التغيير في الوضع يعطيك المهلة المطلوبة، وتستهلك من خلالها شيئاً من الطاقة التي تم ضخها ولكن في الاتجاه غير العدواني.

وما أجمل أن تلجأ في تلك اللحظات إلى الوضوء، كما في حديث نبوي، وتذكر الله «عزوجل» وتصلي ركعتين لتحوّل الطاقة الانفعالية العدوانية إلى عفو وتسامح ورحمة وتفكير متزن مع استمداد العون من الله.

• مع التجربة الموسوية:

كان النبي موسى بن عمران «عليه السلام» ذي شخصية سريعة الانفعال . وإن كانت دفاعاً عن الحق والمظلومين وفي مرضاة الله . إلا أن الله أراد له أن يكون أكثر سيطرة على انفعالاته فأدخله تجربة عملية مع العبد الصالح في الرحلة المعروفة. ولعل تلك الحالة ناتجة أصلاً من أنه نشأ وتربى في البلاط الفرعوني، فتركّت تلك البيئة شيئاً من الأثر على شخصيته.. ولا يخفى علينا كيف يتصرف أصحاب القوة والنفوذ انفعالياً لاسيما مع من هم أقل منهم شأنًا.

• البيئة التربوية:

لذا نقول لأولياء الأمور الذين يحبّون أن يروا أبناءهم

يتمتعون بشخصية هادئة، هل وفرت لهم هذه البيئة؟

أولياء الأمور الذين يشتكون أن أبناءهم عنيفون في ردود أفعالهم، سريعو الغضب، صخابون، عدوانيون، فليراجعوا أنفسهم.. فعندما يحدث الخلاف - مثلاً - بين الزوجين فيلجئان إلى الصراخ.. أو عندما يرى الطفل والديه في حالة انفعال دائم.. كيف نتوقع أن تكون انفعالاته وتصرفاته؟

• مع أهل السياسة والدين والفضن:

عندما نجد أن المجتمع يعاني من التصرفات الانفعالية المتزايدة، فليراجع السياسيون سلوكياتهم، حينها سيجدون أن حواراتهم البينية عنيفة، وأن سمة خطاباتهم الصراخ والصخب.. وليراجع رجال الدين خطابهم الديني، سيجدون أن الإقصاء والتكفير والعنف سمات غالبية على ذلك الخطاب، وأن أحدهم لو اختلف مع رجل الدين الآخر فإنه لا يرحمه، بل يكيل له عناوين الجهل وقلة العقل.. وليراجع أهل الفن والإعلام إنتاجهم الفني والإعلامي، سيجدون حينها أن التسفيه، والتحقير، والاستهزاء، والكلمات الجارحة، وإثارة الخلافات، هي العناوين الحاضرة فيه.

إن الواقع الانفعالي الذي يعيشه الطفل في البيت، والفرد في المجتمع، إنما هو نتاج البيئة التي نصنعها من حولنا، ومن

يريد تغيير ذلك الواقع فعليه أن ينظر إلى الوالدين في البيت، وإلى السياسيين في محافظتهم وإلى رجال الدين في خطبهم وكتاباتهم، وإلى أهل الفن والإعلام في إنتاجاتهم.. فإن أصلحوا ما أفسدوه، فسينصلح حال الطفل في البيت، وحال الفرد في المجتمع، وما أجمل قول النبي «صلى الله عليه وآله» وهو يشخص جانباً من المشكلة: (صنفان من أمتي إذا صلحاً صلح الناس، وإذا فسد فسد الناس: الأمراء والعلماء).

(٤)

الإيثار عند رسول الله ﷺ

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ «القلم: ٤».. يقول أهل الاختصاص من اللغويين أن هذا التعبير أقوى دلالة مما لو قيل «وإنك لذو خلق عظيم» لما في التعبير الأول من دلالة على الاستعلاء والتمكن من الشيء، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ «الأعراف: ٥٤».. بخلاف التعبير الثاني الذي يدل على حصول الشيء لا أكثر. وهذا يعني أن النبي كان مستمكناً من الأخلاق التي اتصف بها، وهي تحت قيادته وسيطرته التامة.

• مراتب التخلي عن الأنانية:

ومن أهم أسس وقواعد التخلق بالأخلاق العظيمة هو التخلي عن الأنانية والإفراط في حب الذات، وهذا يأتي على مراتب، منها:

١. أن لا يعيش الفرد حالة الشعور بالوحدانية على الأرض، وكأن كل شيء موجود لأجله ولخدمته. وتتجلى هذه الأنا ابتداءً من سلوكيات الناس في الشارع وحيثما كان زحام أو حالة من

عدم الانضباط، مروراً بتخلي السياسي عن مبادئه وقيمه المعلنة، وقفزه على وعوده لناخبيه من أجل تحصيل مكاسب شخصية، وانتهاءً بذلك الحاكم المستعد أن يدمر وطناً أو يحدث فيه الفتن لينشغل الناس عنه، من أجل أن يبقى هو في الحكم.

والتجلي الأعظم لحب الذات يكون في مشهد يوم القيامة: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ «عبس: ٣٣-٣٧».

والأبشع من ذلك: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً، يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ، كَلَّا إِنهَا لِظَىٰ﴾ «المعارج: ١٠-١٥».

٢. أن يؤثر الآخرين على نفسه في ما يملكه ولكنه لا يحتاج إليه بل قد استغنى عنه.. ومثل هذا الإيثار ليس بتلك القيمة، ولذا قال «تعالى»: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ «آل عمران: ٩٢». وقال: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ «الإنسان: ٨». والبعض من قوة الأنا عنده يحتفظ بهذا الشيء إلى أن يتلف ولا يقدمه لمن يحتاج إليه.

٣. أن يؤثر الآخرين على نفسه في ما يحتاج إليه، لا في ما استغنى عنه. وقد مدح الله هذه الحالة حيث قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «الحشر: ٩».

• النبي في قمة الإيثار:

وهكذا كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» في أعلى مراتب نكران الذات، وكان مرهف الحس في ذلك، لا يفر من حاجة الناس، بل يبحث عنها في أعينهم كي يخفف من معاناتهم ولو على حساب نفسه.

لاحظ الخبر التالي الذي يرويهِ البخاري في صحيحه عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول: (الله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم «صلى الله عليه وآله» فتبسم حين رأيته وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: يا أبا هريرة. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: الحق. ومضى،

فتبعته، فدخل فاستأذن، فأذن لي، فدخل فوجد لبناً في قدح، فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهده لك فلان أو فلانة. قال: أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي. قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد. إذا أتته صدقةً بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هديةً أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فسأني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله «صلى الله عليه وآله وسلم» بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت. قال: يا أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: خذ فأعطهم. قال: فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم فقال: أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت. قلت: صدقت يا رسول الله. قال:

اقعد فاشرب. فقعدت فشربت. فقال: اشرب. فشربت. فما زال يقول: اشرب، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلماً. قال: فأرني. فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة).

وكان «صلى الله عليه وآله» حياً في حاجة الناس، فكان يُعطي الآخرين حتى لا يبقى له شيء، إلى درجة أن الله «تعالى» قال له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ «الإسراء: ٢٩».

وكان يؤثر الآخرين على راحته حرجاً حتى قال «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَّا هَٰذَا دُعَيْتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ «الأحزاب: ٥٣».

• سقوط مدوّ:

يسقط الكثيرون أمام المغريات والمتطلبات المادية التي استحكمت في كل تفاصيل حياتنا، ولهذا السقوط دويٌّ في الآخرة، يتمثل بأشع صورة، بالمستوى الذي يكون فيه الإنسان مستعداً لتقديم أبنائه وأعرته إلى النار لينجو هو بنفسه! ومن أهم أسباب هذا السقوط استحكام حالة الأثرة الناجمة عن

الاستغراق في حب الذات إلى المستوى الذي يفقد فيه الإنسان مقومات إنسانيته، تلك المقومات التي ترفعه من حضيض الهاوية إلى رفيع الدرجات: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وما ذاك إلا باختيار من الإنسان حين يرضى بالتخلي عنها، فيفقد أسباب الارتقاء، ليجد نفسه في أسفل سافلين.. وتبقى فئة ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فقد عرفت طريق النجاة في الاقتداء بسيد البشر «صلى الله عليه وآله» الذي أنكر ذاته لصالح البشرية، فخلد الله ذكره على كل لسان ذاكر حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ «الأحزاب: ٥٦».

رحمة النبي وآله

عُرف العربي الجاهلي بقساوة القلب، وفي القرآن الكريم يطالعنا مشهد قتل الأبناء: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكثير مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾ «الأنعام: ١٢٧» إما بتقديمهم كقرايين للآلهة، أو بالوَاد الذي جُعِلَ أمراً محبباً درءً للنحس ووقايةً من العار، ليمثّل ذلك واحداً من أبشع صور قساوة القلب عند الإنسان.

• من سيرة النبي الأكرم:

وفي خبر أنه (قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» الحسن بن علي وعنده «الأقرع بن حابس التميمي» جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرةً من الولد ما قبِلْتُ منهم أحداً! فنظر إليه رسول الله «صلى الله عليه وآله» ثم قال: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ). وفي خبر آخر أن النبي رأى صحابياً دائماً الحزن، فلما استفسر منه السبب قال: (إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت! فقال له: أخبرني عن ذنبك؟ فقال: يا رسول الله، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم،

فولدت لي بنتٌ فتشفّعت إليّ امرأتي أن أتركها، فتركتهَا،
حتى كُبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء، فخطبوها،
فدخلتني الحمية، ولم يتحمل قلبي أن أزوجهَا، أو أتركها في
البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة
كذا وكذا في زيارة أقربائي فأبعثها معي، فسرت بذلك،
وزيّنتها بالثياب والحلي، وأخذت عليّ المواثيق بألا أخونها،
فذهبت إلى رأس بئر فنظرت في البئر، ففطنت الجارية أني
أريد أن ألقىها في البئر، فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول: يا
أبت إيش تريد أن تفعل بي؟ فرحمتها، ثم نظرت في البئر
فدخلت عليّ الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا
تُضيّع أمانة أُمي! فجعلت مرة أنظر في البئر ومرة أنظر
إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في
البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر: يا أبت قتلتنني؟ ومكثتُ
هناك حتى انقطع صوتها فرجعت. فبكى رسول الله «صلى
الله عليه وآله» وأصحابه، وقال: لو أمرت أن أعاقب أحداً بما
فعل في الجاهلية لعاقبتك).

• تربية نبوية فريدة:

مثل هذه النماذج استطاع النبي «صلى الله عليه وآله» أن
يُدخل عليها التغيير، ويُخرجها من القسوة إلى الرحمة، بل
ربّاهم على أن يكونوا مُرهفي الحس تجاه هذه المسألة.

ومن أمثلة ذلك قول النبي «صلى الله عليه وآله» في غزوة خيبر حين مرّ بلال بصفية ابنة حيي بن أخطب، وابنة عمّها لها على قتلى اليهود: (يا بلال، أنزعت منك الرحمة حتى تمر بامرأتين على قتلاهما؟). ولم يقتصر الأمر على الإنسان، ففي خبر أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى) أي التراب (من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملاً خُفّه ماءً ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله إن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: في كل كبد رطبة أجر).

وقد ورث أهل بيت النبي «عليهم السلام» هذه الروحانية الرحيمة والروؤفة عنه «صلى الله عليه وآله»، فكانوا يتألمون لحاجة الناس، فما يهنأ لهم الفراش ليلاً، ولم يُبعدهم التهجد في السحر عن البحث عن المحتاجين، يحملون الزاد إليهم على ظهورهم، متستّرين بالظلمة، متكرّرين باللثام، ليبقى العطاء خالصاً لوجه الله.. هكذا روي عن علي والسجاد والكاظم «عليهم السلام». وما كان الإمام الحسن المجتبي «عليه السلام» ليهنأ بطعامه حتى يدعو الفقراء إلى مائدته يُطعمهم بيديه. ولالإمام الحسين «عليه السلام» موقف عظيم قبيل كربلاء

يذكرنا برحمة جده حين أمر بسقي جيش العدو، ثم وقف يسقيهم وخیولهم بنفسه! وروى المزي في «تهذيب الكمال» في صفة الإمام الكاظم «عليه السلام»: (وكان يبخله عن الرجل أنه يؤذيه، فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار، وكان يصّر الصّرر ثلاث مائة دينار، وأربع مائة دينار، ومئتي دينار، ثم يقسمها بالمدينة. وكان مثل صرر موسى بن جعفر) يضرب بها المثل (إذا جاءت الإنسان الصرة، فقد استغنى).

هذه الرحمة التي زرعها النبي في النفوس، اقتلعتها الأمويون والخوارج قلعا، فمُسخت شخصية المسلمين، وجاءت اليوم ذرية أولئك القوم من التكفيريين الذين انتزعت الرحمة من قلوبهم، فأشبهوهم في فعالهم الإرهابية.. وإن تعجب لهؤلاء، فعجبا للمغتربين بهم، ممن يحملون في قلوبهم المودة لهم، والتبرير لوحشيتهم، والشرعنة لأفعالهم الخسيسة، كيف مُسخت في عقولهم ونفوسهم مفاهيم الرحمة في الإسلام، وصور الرأفة في شخصية النبي! ومن هنا فإن من مسؤوليتنا أن نقدّم هذه الصور المذهلة في مدرسة أهل البيت لنملأ الفراغ الذي خلفته تلك الممارسات الوحشية في فهم الإسلام، ولنخرس الألسنة التي استطالت بالإساءة إليها من خلال ممارساتنا اللامسؤولة وانسياقتنا وراء الطرح الخرافي والاستفزازي الذي لم يعد علينا وعلى مدرسة أهل البيت إلا بالسوء.

النبي في مواجهة التكفير

بدأت ظاهرة التكفير في الإسلام منذ أن ابتدع الخوارج هذه البدعة القبيحة التي ما زال الإسلام ينزف منها. فقد عمل النبي الصادق الأمين «صلى الله عليه وآله» على تحصين العلاقة بين المسلمين وتجنبيهم الوقوع في هذه المهلكة بعدة أساليب، منها:

١. التشديد على بيان ضابطة الإسلام:

وما يترتب على ذلك من حرمة. فقد أكد النبي «صلى الله عليه وآله» في أكثر من موقع على أن الشهادتين كفيلتان بالحكم على الشخص بالإسلام والتعامل معه على أساس هذا الظاهر، وإن استبطن خلاف ذلك ولم يُظهره. ومن نماذج ذلك ما جاء في خبر فتح خيبر على يد أمير المؤمنين علي «عليه السلام» أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال له: (قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعو منكم دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله)، ومعنى الجملة الأخيرة أننا مطالبون

بالعمل وفق ظاهريهم، فإنَّ أبطنَ بعضهم خلاف ذلك، فلا يحق لنا أن نحاكم باطنهم، بل الأمر لعالم السرائر وحده سبحانه وتعالى.

٢. التأكيد على حرمة المسلم:

والنهي عن العودة إلى السلوك الجاهلي الذي كان يستخف بحرمة الدم، ففي خبر أبي بكرة كما جاء في صحيح البخاري: (أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» خطب الناس فقال: ألا تدرون أي يوم هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، فقال: أليس بيوم النحر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: أي بلد هذا؟ أليست بالبلدة الحرام؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ قلنا: نعم. قال: اللهم اشهد. فليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ يُبلغه لمن هو أوعى له، فكان كذلك. قال: لا ترجعوا بعدي كفراً يضرب بعضكم رقاب بعض).

٣. امتناع النبي عن قتل المنافقين:

على الرغم من كل الدور السلبي الذي كانوا يمارسونه، مما نجده واضحاً في القرآن الكريم، حتى بعد أن قويت شوكة

الإسلام، وتحدثت سورة التوبة بعنف عن النفاق والمنافقين. ولعل من أهم أسباب هذا الامتناع هو عدم فتح باب التكفير المؤدي إلى استباحة الدماء.

٤. الاكتفاء بالظاهر ولو احتملنا الخلاف:

فغن أسامة بن زيد قال: (أدركت رجلاً أنا ورجل من الأنصار، فلما شهرنا عليه السيف، قال: لا إله إلا الله، فلم ننزع عنه، حتى قتلناه، فلما قدمنا على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، أخبرناه خبره، فقال: يا أسامة، مَنْ لك بلا إله إلا الله؟ فقلنا: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً من القتل. قال: مَنْ لك يا أسامة بلا إله إلا الله؟ فما زال يرددها، حتى لوددت أن ما مضى من إسلامي لم يكن، وأني أسلمت يومئذ، ولم أقتله، فقلت: إني أعطي الله عهداً ألا أقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً، فقال النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: بعدي يا أسامة؟ قال: بعدك) ولا يخفى القلق الذي يساور النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من تغيّر حال المسلمين بعده بالتساهل في هذا الأمر، بحيث أنه يأخذ عهداً من أسامة بأن يلتزم بعدم التكفير وبجرمة دم المسلم عقب وفاته «صلى الله عليه وآله وسلم».

وفي حديث آخر ما هو أشد من ذلك، فغن المقداد بن عمرو

أنّه قال: (يا رسول الله، رأييت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتلتنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثمّ لاذ منّي بشجرة فقال: أسلمتُ لله، أأقتله يا رسول الله، بعد أن قالها؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: لا تقتله).

• الإمام الصادق والتكفير:

وهكذا نجد حفيده الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» يحافظ على ذات المنهج في المنع من تكفير المسلم، والتأكيد على حرمة في زمن غدا فيه التكفير أمراً مقبولاً ومنتشراً، ووسيلة من وسائل الانتصار المذهبي، أو تحقيق المكاسب السياسية والحزبية، أو التخلص من الخصوم، أو إلهاء الناس عن فساد السلطة، وغير ذلك.. وقد كان الإخراج من الإسلام يتم بأدنى شبهة أو نزاع فكري أو فقهي.. ومن هنا، انتهج الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» لمواجهة تلك الظاهرة أساليب عدة، منها:

١. بيان ضابطة الإسلام:

فعن عبد الله بن سنان قال: (سألت أبا عبد الله بم يكون الرجل مسلماً تحلّ مناكحته وموارثته؟ وبم يحرم دمه؟ قال: يحرم دمه بالإسلام إذا ظهر، وتحلّ مناكحته وموارثته).

٢. التفريق بين الإسلام والإيمان:

الخلط بين الإسلام والإيمان من الأسباب التي أدت إلى تقشّي التكفير، حيث تنفي بعض الآيات والأحاديث الإيمان عن البعض، فيتصور المطلع عليها أن مثل هذا النموذج مسلوب الإسلام، فيسلبه بالتالي كل حرمة!

ومن هنا يوضّح الإمام الصادق الفرق بينهما، وفي الآثار المترتبة عليهما، فعن سماعة قال: (قلت لأبي عبد الله «عليه السلام»: أخبرني عن الاسلام والايمان أهما مختلفان؟ فقال: إن الاسلام شهادة أن لا اله الا الله، والتصديق برسول الله «صلى الله عليه وآله». به حُقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس. والإيمان: الهدى وما يثبت في القلوب من صفة الاسلام وما ظهر من العمل).

٣. سد ذرائع التكفير:

كانت دلالة بعض الآيات المتشابهة وسيلة من وسائل أصحاب المنهج التكفيري أو الذين لم يملكوا أدوات المعرفة الكافية للإفتاء كي يقعوا في محذور التكفير، ومن ذلك ما جاء في قوله «تعالى»: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ «يوسف: ١٠٦»، فقد تمسك بها البعض ليحكموا

بالكفر والشرك على كثير من المسلمين، الأمر الذي نفاه الصادق «عليه السلام» حيث قال: (شرك طاعة وليس شرك عبادة)، فهل يستطيع أحد أن ينفي عن نفسه طاعة هواه أو وسوسة الشيطان من حين لآخر؟ وعليه فالآية لا تريد أن تكفر كثيراً من المسلمين بما يخرجهم عن دائرة الإسلام، بل تريد أن تنبههم إلى سلبية الانقياد للأهواء والوساوس الشيطانية وتنفيذ أوامر الظلم الصادرة عن الظالمين.

وهكذا وقف الإمام «عليه السلام» موقفاً صلباً ممن حاول أن يجعل من عدم الاعتقاد بإمامة أهل البيت «عليهم السلام» مدخلاً لتكفير المسلمين، ومن ذلك ما روي مفصلاً من حوار دار بينه وبين بعض أصحابه حيث أصرَّ أحدهم على التكفير فقال الإمام: (أليس يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويصلون ويصومون ويحجّون؟) فما أصر الرجل على التكفير قال الإمام: (سبحان الله، هذا قول الخوارج).

• انحراف لا انتماء:

إن الانتماء إلى مدرسة التكفير لا يُشترط فيه الانتماء المذهبي المحدد، بل إنه يمثل حالة من الجهل بمفاهيم الإسلام، ودليلاً على التعصّب، وطريقة في التفكير لا تنطلق

من تعاليم الإسلام ولا تلتقي بها، فقد قال «تعالى»: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ «النساء: ٩٤» ناهياً بذلك عن اتباع الهوى والتسرع في الحكم والركون إلى الجهل بإحكام الإسلام، أو بما ادّعي على لسان النبي وآله «عليهم السلام» مما يُخالف حقائق القرآن، وقد روى الصادق جعفر عن النبي الصادق أنه قال: (إِنَّ عَلَى كُلِّ حَقِّ حَقِيقَةً، وَعَلَى كُلِّ صَوَابٍ نُورًا، فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللَّهِ فَخُذُوهُ، وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ فَدَعُوهُ).

(٧)

إنا كفييناك المستهزئين

قال الله «عز وجل»: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾
«الأحزاب: ٢١».

من الضروري ونحن نطالع السيرة النبوية المباركة المدونة في كتب التفسير والتاريخ والأحاديث، أن نعرض أحداثها ومواقف النبي وأقواله على القرآن الكريم.

صحيح أن القرآن لا يعرض تمام السيرة وتفاصيلها، إلا أنه قدّم لنا المعايير، والأطر العامة، ومجموعة من المواقف والإرشادات الإلهية التي يمكن من خلالها أن نحاكم الكثير من تلك الروايات.

ولو كان الإطلاع على السيرة النبوية بمثابة قراءة لقصة للتسلية ولإمضاء الوقت لهان الأمر، إلا أن المسألة أبعد من ذلك وأخطر، فالمسلمون من خلال هذه السيرة قد:

١- يبنون معالم شخصية النبي «صلى الله عليه وآله»، ثم يتخذونها النموذج الأمثل لصياغة شخصياتهم.

٢. يراكمون من خلالها التجارب النبوية، مستهدين بها على مستوى التكليف الشرعي في المواقف المختلفة.

• كيف تعامل النبي مع المسيئين إليه؟

ومن القضايا التي تمس واقعنا اليوم مسألة الإساءة إلى شخص النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» من قبل بعض وسائل الإعلام الغربية، وبعض الملحدين، وأمثالهم.

فكيف كان يتعامل النبي مع مثل هذه الإساءات وفق ما جاء في كتب السيرة والحديث مقارنة بما جاء في القرآن الكريم؟ وهل ما يقوم به البعض من ردود فعل عنيفة تصل إلى حد القتل والتفجير استهزاء بسنته أم لا؟

ولو فرضنا الإيجاب، فهل نتجاهل العناوين الثانوية، من قبيل تأكيدنا للصورة المشوهة التي يقدمونها عن نبي الرحمة بأنه نبي الذبح وأن دينه ما انتصر إلا بالسيف؟ ألن تكون هذه العناوين الثانوية حاكمة عليها حينذاك؟

عندما نعود إلى القرآن سنجد أن الله «عز وجل» أرشد نبيه إلى التعامل مع مَنْ سبّوه وأسأؤوا إليه بالسخرية والاتهامات الباطلة والأوصاف المهينة من قبيل «السحر، الكذب، الاقتراء على الله، الجنون، وغيرها مما نقله عنهم القرآن بذاته» سواء أكانوا من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب كالتالي:

بالنسبة إلى المشركين: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ «الأعراف: ١٩٩»، ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ «المزمل: ١٠». هذا هو ملخص
الموقف.. لا أمر بقتل ولا مواجهة بعنف.

• صاحب القلب الكبير:

ولا تتصور أنه كان يتمنى إهلاكهم بعد كل إساءاتهم له،
فقلبه الكبير كان يدفعه إلى أن يدعو لهم بالهداية ويبرّر لهم
أنهم لا يعلمون!

وفي موقف يخبره جبريل «عليه السلام» أن الملك الموكل
بالجبال يقول: (إِنْ شِئْتَ أَطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الْأَشْخَبِينَ) اسم
لجبلين.. فبم أجاب؟ قال: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ
أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا).

قد يقال أن المشركين كانوا أقوىاء في مكة والنبي بينهم،
ولذا أمر بذلك، وأن الأمر اختلف لاحقاً.. ولكن هذا الكلام
مردود عليه، بموقفه ممن أساء إليه بالقول من المنافقين وأهل
الكتاب وهم تحت سلطانه في المدينة.

بالنسبة إلى المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ
وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾ «التوبة: ٦١»، أي أن النبي لا يفكر وساذج
ويصدق كل ما يقال له.. هذا في السنة التاسعة للهجرة،

والنبي «صلى الله عليه وآله» في قمة قوته، والمتحدثون تحت سلطانه.. فما الرد؟ ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.. هذا هو الرد، هو رحمة وهدى عندما يستمع إليكم ويجاريكم.

وفي موقف آخر: ﴿يَقُولُونَ لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ «المنافقون: ٨»، هذا قول ابن سلول حتى تجرأ وقال: (سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْك). ويأتي ابنه عبد الله يطلب الإذن بقتله، ويرفض النبي رفضاً قاطعاً.

وعندما يحتضر هذا المنافق يبعث في طلب النبي، ويستجيب له، فكلمه النبي ولامه قائلاً: (أَهْلَكَ حُبُّ الْيَهُودِ)، فقال: (قد فهمتُ ما تقول، فامْنُنْ عَلَيَّ فَكفني في قميصك وصل عليّ، ففعل).

• إساءات أهل الكتاب:

وبالنسبة إلى أهل الكتاب: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ «آل عمران: ١٨٦».. أي إن بينكم وبين أهل الكتاب عهد، لا تتقضوه لمجرد صدور مثل هذه الإساءات الكلامية في أجواء غزوة أحد التي خسر فيها المسلمون المعركة وشعروا معها بالضعف وكانت الفرصة لليهود كي نفسوا عن شيء من أحقادهم.

ولو نعود إلى الآيات السابقة لها سنجد بعضاً من مضامين إساءاتهم الموجهة إلى الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ «آل عمران: ١٨١»، وإلى النبي «صلى الله عليه وآله»: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولُ مَنْ قَبْلِكَ﴾ «آل عمران: ١٨٤». فما هو الموقف منهم؟ ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ اصبروا على هذا الأذى، واتقوا الله ولا تتقضوا الميثاق بينكم وبينهم.. اتقوا الله ولا تردوا عليهم بالسيف وأنتم على ذلك قادرين.

في نفس السورة: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ، لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَى﴾ هذا الكلام القبيح والجارح والإثارات السيئة لن تتجاوز الأذى النفسي والاعتباري بحقكم، فليس المطلوب الرد بالعنف.. نعم: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ «١١٠-١١١»، وهنا اختلفت المسألة.

القاعدة إذاً: لا تنتقم يا رسول الله من هذه الإساءات الكلامية، ولا تواجهها بالعنف، قتلاً كان أم دون ذلك، ودع الأمر لي: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ «الحجر: ٩٥». وعليك بالقاعدة الأخلاقية: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ «فصلت: ٣٤». نعم، لو وصل الأمر أن يغزوك ويسعوا

إلى القضاء عليك، وعلى أنصارك، ودينك، فهذا شيء آخر، ولا بد من الدفاع عن النفس، ورد كيد المعتدين. ولذا لم يغزُ النبي أية غزوة ابتداء، بل كانت كلها دفاعية، أو رداً لعدوان، أو مواجهةً لنقض عهد، ومواثيق صلح وأمان.

• ضياع صورة الإسلام:

إن الأوضاع المساوية التي يمرّ بها المسلمون، وتعالى صوت التكفيريين وتنامى قوتهم إلى وقت قريب، وغلبة صورتهم المتوحشة على الصورة الحقيقية للإسلام، وإن باتت تمثّل تحدياً كبيراً على الصعيد الفكري والأخلاقي والإنساني والأمني، إلا أنها في ذات الوقت أصبحت الفرصة المواتية لفقهاء المسلمين على اختلاف مذاهبهم لكي يعيدوا التفكير في اجتهاداتهم الخاصة بمثل هذه القضايا التي ما عادت بحوثاً نظريةً، بل ترتعن بها صورة الإسلام التي اهتزّت كثيراً، لا عند غير المسلمين فحسب، بل قَبْلَ ذلك في نفوس أبنائه الذين غدّوا بحاجة إلى مَنْ ينتشلهم من وحول الشك والإلحاد واللا دينية، بالدليل والحجة، لا بالخطاب العاطفي الذي يسهّل نقضه.. وأدعي جازماً أن العودة إلى القرآن الكريم وجعله - بحق لا ادعاءً - المصدر الأول للتشريع، ولمعرفة مفردات الإيمان والفكر الإسلامي والأخلاق والسير، هو السبيل للوصول إلى النتيجة المطلوبة.

(٨)

إلا تنصروه

تعرض النبي «صلى الله عليه وآله» منذ بداية إعلان نبوته ودعوته إلى الإسلام لصور عديدة من الإساءة في أجواء العهدين المكي والمدني. وقد تحدث القرآن الكريم عن صور من تلك الإساءات، واختلفت أساليب المعالجة والمواجهة ورد الإساءة وفق المعطيات الظرفية، ولكن ما يجمعها هو الانتصار الإلهي لرسول الله وفق القوانين التي يدير بها الله سبحانه هذا الوجود، أعني أن الانتصار له لم يتم من خلال المعاجز والانتقام الشامل المدمر: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ «التوبة: ٤٠».

• وعد إلهي:

وهذا هو الوعد الإلهي الذي يؤكد على أن الله «سبحانه» لا يحتاج إلى أي عبد من عباده في تحقيق إرادته بالنصر،

سواء في إطار الدعوة، أو في إطار رد الإساءات المتوجهة لنبيه، لأنه وليّ القوّة في الحياة كلها، ولكن إرادته شاءت أن تسيّر الأمور وفق القوانين.. فإذا تخلى الناس عن نصرته، فإن الله لن يخذله، وسيوفر له أسباباً أخرى للنصر: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ «محمد: ٢٨».

ومن جهة أخرى فقد أكد القرآن الكريم على تشابه هذه المعاناة مع معاناة الأنبياء السابقين: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ «الذاريات: ٥٢». ويمكن تقسيم تلك الإساءات إلى أقسام:

• القسم الأول: في أجواء الدعوة:

في العهد المكي: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ «الكوثر: ١-٣» حيث تنص الأخبار أن المشركين كانوا يسعون - بكل وسائلهم وأساليبهم - لتدمير معنويات النبي وبالتالي إسقاط موقفه، ومن أساليبهم إهانته بالكلمات الجارحة النابية المؤذية، وأن بعض سفهاء قريش، كالعاص بن وائل، وأبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، وكعب بن الأشرف، قالوا عند موت القاسم ابن رسول الله: إن محمداً قد انقطع نسله، فلا جرم، لقد أصبح أبتراً.

وغير خاف قيمة وجود الولد الذكر، ولا سيما في المجتمعات

العربية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ «النحل: ٥٨»، فهم في الوقت الذي يعيرونه بذلك تعبيراً اجتماعياً يتضمن كلامهم التلويح بشبهة التخلي الإلهي عن نبيه بادعاء انقطاع سبب استمرار الرسالة من بعده.

فزلت هذه السورة، انتصاراً للنبي وفضحاً لما ستكشفه الأيام عن حال المستهزئين، إذ تؤكد بأن الله قد أعطاه الخير الكثير الذي سيمتد في كل حياته، وفي ما بعده، ولن ينقطع ذكره أبداً، ولن يفنى نسله أبداً، ولن يكون أبتر.. بل إن الذين يقفون ضده هم الأولى بهذه الصفة.

في العهد المدني: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئًا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ «النساء: ٦٦». فعندما كان النبي يدعو اليهود إلى الإسلام، كانوا يقولون بما يصورونه على أنه نوع من الأدب في الكلام، في الوقت الذي كان يمثل فيه الإهانة: (سمعنا، وأنت اسمع لنا، وراعنا) والكلمة الأخيرة تحمل في العبرية معنى مغايراً لما هو عليه في العربية إذ تعني عندهم (لا أسمعك الله!) وجاء الانتصار الإلهي للنبي بفضحهم.

القسم الثاني: في الأجواء الاجتماعية العامة لحياة النبي:

وصدرت بعضها من المنافقين وبعضها من المسلمين لأسباب مختلفة، ومن أمثلة ذلك ما جاء في قضية الإفك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإَفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ «النور: ١١».

فمن النصوص ما يؤكد أن القضية تخص أم المؤمنين عائشة وفي بعضها أم المؤمنين مارية، وعلى هذا الأساس فستكون الآية نموذجاً لإساءة وقحة لأسرة النبي وبالتالي للنبي نفسه، لاسيما بلحاظ التساهل في نقل الإشاعة من قبل المسلمين أنفسهم: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ «النور: ١٥».

وجاء الانتصار بالوعيد بالعذاب الأليم لمن يقف وراء الإشاعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ «النور: ١٩»، وبالتهديد العنيف لمن ينشرها ولو سفهاً: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ «النور: ١٤».

المثال الآخر يتضمن عدة إساءات وتخص تصرفات المسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْسِنِينَ لَحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مَنْ الْحَقَّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ «الأحزاب: ٥٣».

فقد كان النبي «صلى الله عليه وآله» يتأذى من تصرفات بعض المسلمين تجاهه وتجاه أسرته، من قبيل إطالتهم الجلوس في بيته انتظاراً للطعام، أو بعد تناوله، وكذلك من خلال الوقوف عند باب بيته والتحدث إلى زوجاته، بل إلى مستوى حديث بعضهم عن تمنياته للاقتران ببعض زوجات النبي بعد وفاته! وجاء الانتصار الإلهي للنبي هذه المرة بنزول هذه الآية وآيات أخرى تنظم العلاقة الاجتماعية بالنبي وأهله، وترشد زوجاته لبعض الملاحظات: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا، وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ «الأحزاب: ٣٢-٣٣».

المثال الثالث ما جاء في قضية زينب وزيد: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب: ٢٧)، والآية تعكس قلقاً عند النبي من ردة فعل الناس في أقاويلهم المسيئة إليه بالمستوى الذي أخفى فيه ما أخبره الله به مما ستؤول إليه الأمور، وجاء الانتصار للنبي بتقوية موقفه وسد الباب أمام أقاويلهم المؤذية.

• القسم الثالث: فيما يخص إدارة أمور المسلمين:

ومن أمثلته الحديث الخاص ببعض اتهامات المنافقين للنبي «صلى الله عليه وآله» والطعن في عدالته: (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمُزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ... وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (التوبة: ٥٨-٦١).

واللمز بمعنى الإعاية، وهذه إساءة، والإساءة الأخرى تشير إلى ما روي من أن عبد الله بن نبتل كان منافقاً وكان يقعد إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين، فنزل جبرئيل يفضحه، فدعاه رسول الله فأخبره، فحلف أنه لم يفعل، فقال رسول الله: قد قبلت منك فلا تفعل،

فرجع إلى أصحابه فقال: إن محمداً أذن، أخبره الله أنني أنم عليه وأنقل أخباره فقبله، وأخبرته أنني لم أفل ولم أفعل فقبله، فجاء الانتصار للنبي بفضحه، وبيان أن النبي لا يقبل ما يسمع من الناس عن اقتناع، بل يظهر القبول لئلا يهرج المعتذر أو يكذب القائل، انطلاقاً من سماحته وحسن أخلاقه.

• نصره النبي:

وهكذا عاش النبي «صلى الله عليه وآله» موجات من الإساءة إليه في حياته، ولم نستعرض إلا جزءاً يسيراً منها، إلا أن ذلك كله لم يخرج عن اتزان في التعامل مع المسيئين إليه حتى وهو يعاقبهم، هذا إن لم يعف عنهم.. وأما الانتصار الإلهي لنبيه فقد جرى وفق الأسباب لا بالطريقة الإعجازية ولا بالوسيلة التدميرية الشاملة.. وكما تعددت طرق الانتصار الإلهي للنبي وفق الظروف المتغيرة، فإن علينا أن ننوع في الأساليب التي من خلالها نؤدي مسؤوليتنا في هذا الإطار.

عبادة الشخصيات

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ
أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ
يُضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ «آل عمران: ١٤٤».

نزلت هذه الآية الشريفة في السنة الثالثة للهجرة في أجواء
غزوة أحد، أي في بدايات المنعطف الجديد في الصراع بين
الإيمان والشرك، ولعل ذلك في إطار ما أشيع من قتل النبي
«صلى الله عليه وآله» في ساحة المعركة على ما أخبرت عنه
بعض الروايات.

وأثرت تلك الإشاعة بالمستوى الذي وقع معه الارتباك على
المستوى الإيماني والنفسي والعسكري في صفوف المقاتلين
المسلمين حتى قيل: (ليتنا نجد مَنْ يأخذ لنا الأمان من أبي
سفيان)، وقيل: (لو كان محمد نبياً لم يُقتل، الحقوا بدينكم
الأول). ومن هنا كان القرآن حاسماً، إذ جاءت الآية لتقرر أن
القيادة مهما كانت عظيمة، كقيادة رسول الله، فإن غيابها لا
يوقف المسيرة، ولا يلغي المشروع.

• تخليد القادة بخلود الرسالة:

فالمبادئ والرسالة هي الأصل.. والقادة يُخلَّدون ويُعظَّمون بمقدار إخلاصهم وتضحياتهم لأجل هذه الرسالة والمبادئ.. ومن خلال ذكراهم، لا من خلال حضورهم الجسدي.. لأن الله لم يكتب لأحد الخلود في هذه الحياة.

هذه الحقيقة الإيمانية أدركها بعض أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» في تلك اللحظات، حيث يُروى أن أنس بن النضر مرَّ ببعض الهاربين من ساحة المعركة، فسألهم مستكراً: (ما يجلسكم؟ قالوا: قد قُتل محمدٌ رسول الله. قال: وما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله. واستقبل القوم فقاتل حتى قُتل).

ثم إنَّ فهمنا لهذه الحقيقة الإيمانية يلغي فكرة عبادة الشخصيات المنطلقة من الفكرة السابقة، حتى إذا غاب غابت الرسالة معه.. وإذا انحرف، انحرف الناس معه، وسطّروا لانحرافه وانحرافهم معه قوائم من التبريرات.

• اعرف الحق تعرف أهله:

وهذا ما لخصه أمير المؤمنين علي «عليه السلام» بعبارة أخرى حيث روي أن الحارث بن حَوط أتاه فقال: (أتراني أضن أن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ فقال «عليه السلام»:

يا حارث، إنَّكَ نظرت تحتك، ولم تنظر فوقك فحرت، إنَّكَ لم تعرف الحقَّ فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه). وفي نص آخر: (إنَّ الحق والباطل لا يُعرفان بالناس، ولكن اعرف الحق باتباع من اتبعه، والباطل باجتناّب من اجتنبه).

علماً بأن جزءاً من مشكلة التناقض الذي نعيشه بين العناوين الرائعة التي نحملها كالإيمان والولاية، والقادة المثاليين الذين ننسب إلى نهجهم من جهة، وبين حقيقة شخصياتنا وسلوكنا غير المتناغم مع تلك العناوين من جهة أخرى، يكمن في هذا التركيز على الشخصيات في ذاتياتهم، وإهمال الرسالة في مبادئها وقيمها.

• القائد الضرورة:

ثم تعال اليوم إلى إحدى انعكاسات عبادة الشخصيات، المتمثلة في مفهوم الرئيس الأوحّد، والقائد الضرورة، واختصار الأوطان في القادة، وهو ما يروّج له الإعلام في كثير من الدول العربية والإسلامية.

ويبلغ الحال إلى مستوى الاستعداد لتقديم ملايين القرابين البشرية بإشعال الحروب الأهلية وتدمير الأوطان وتهجير الناس كي يبقى هذا القائد الضرورة على سُدّة الحكم، على

الرغم من كل ما مارسه من فساد وظلم. هذا فضلاً عن إضفاء صفة «العصمة» على أفعاله وقراراته حتى لا يملك أحد الحق في نقده أو تخطئته.

وتأتي هذه الكذبة الكبرى ليصدقها صاحبها بنفسه، حين تتضخم الذات عنده إلى المستوى الذي لا يلتبس معها إلا مصالحه، ولا يصحح إلا رأيه، فهي أشبه ما تكون بعبادة الذات من خلال عبادة الفرد لهواه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ «الفرقان: ٤٣».

وبعضهم يجعل لحزبه حالة شبيهة، إذ يستغرق في المصلحة الحزبية حتى يتحول الحزب عنده إلى إله، لا يعمل إلا من أجله، ولا يحقق النتائج إلا بما يزيد من رصيده الشعبي، وأما المصلحة العامة فإلى جهنم.

• صور مرفوضة:

إن هذه الصور بأجمعها صور مرفوضة وفق المنطق القرآني، لأن الله لا يريد لنا أن نستغرق في ذاتيات القيادة. وإن كانت بمستوى النبي الأكرم. ونحذق في مكامن عظمتها، ثم ننسى القضية ذاتها، ونغفل عن الأهداف التي من أجلها قدّمت تلك الشخصيات ما قدّمته من تضحيات جسام حتى ارتفعت مقاماتها عند الله وعند الناس، لأن هذا قد يعرّضنا إلى

ازدواجية الشخصية والابتعاد عن الرسالة والمبادئ... ويأتي بالتبع رفض فكرة عبادة الشخصية التي خَلَقَتْ لَنَا طَوَاغِيتَ لَا يَرُونَ إِلَّا مَصَالِحَهُمْ، وَأَحْزَابَ تَفَوَّلَتْ حَتَّى غَدَتْ عِنْدَ الْمُتَحَرِّبِينَ لَهَا آلِهَةٌ لَا يَرُونَ لَهُمْ مَشْرُوعاً إِلَّا غَلَبَتِهَا عَلَى سَائِرِ الْأَحْزَابِ، لِيُحَوَّلُوا الشُّعُوبَ إِلَى ضَحَايَا وَقَرَابِينَ، وَالْأَوْطَانَ إِلَى مُحَارِقٍ وَخَرَائِبٍ مَتَى وَجَدَ أُولَئِكَ الطَّوَاغِيتُ أَوْ وَجَدَتْ تِلْكَ الْأَحْزَابُ أَنَّهَا مُهَدَّدَةٌ بِخَسَائِرَ عَلَى مَسْتَوَى الصَّرَاعِ السِّيَاسِيِّ أَوْ الْمَوَاقِعِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي السُّلْطَةِ، وَفَقَ مَنْطِقُ (عَلِيٍّ وَعَلَى أَعْدَائِهِ).